مجلة الدراسات التاريخية
مجلد 11 العدد 01 السنة 2010 ص ص 10-30

النقد التوراتي

أ.ة/ الحاج الطاهر زكية [1]
[1] جامعة الجزائر 2

المقدمة

تقول الموسوعة البريطانية في المجلد الثاني ص 884 فيما يتعلق ببعض أسفار العهد القديم والتوراة بالأخص فإنه توجد إمكانية حقيقية رغم صعوبة إثباتها، أن تناقلها ظلّ شفهيا لمدة طويلة قبل إخضاعها للكتابة.و خلال هذا الفاصل الزمني فإن النسخة الأصلية لم تتغير فحسب، بل إن عملية النقل المتعاقبة قد ولّدت أكثر من تنقيح واحد من بداية كتابتها .وتزداد المشكلة تعقيدا بسبب الفارق الكبير بين زمن الكتابات الأصلية للعهد القديم وخاصة التوراة حتى لو فرضنا أنها كتبت مباشرة منذ إنشاءها وبين زمن كتابة أقدم مثيلتها الموجودة حاليا كما يشير في ذلك محمد السعدي في كتابه دراسة في الأناجيل الربعة والتوراة ص116، وفي بعض الأحيان يصل الفارق إلى ألف سنة من أعمال النسخ . ومهما تكن المدة الفاصلة فإن إمكانية التغيير المتعمد وغير المتعمد الذي يؤثر في جميع عمليات نسخ المخطوطات فموجودة وحاضرة، مما أدى إلى التباين في الأخطاء في النص التوراتي والعهد القديم برمته.

لكن أباء الكنسية الكاثوليكية خاصة يعللون وجود الأخطاء في العهد القديم والتوراة بأخطاء في القراءة أو سمع بعض الكلمات أو هجاءها من طرف النّساخ وأخطئوا في التفريق ما يجب فصله من الكلمات وما يجب أن يكون تركيبا واحدا، وهكذا لا يوجد سبب جدي يدعوا للافتراض بأن أسفار العهد القديم خاصة لم تتعرض للأنواع العادية من الفساد النسخي على الأقل في الفترة التي اعتبرت مقدسة.

و بما أنها كتبت على طول فترة ممتدة أكثر من ألف سنة وأخذت صورتها النهائية في القرن الأول ميلادي وأنها نسخت مرارا وأعيد كتابتها باليد فإضافة إلى ما قيل من أخطاء في عملية النسخ، كان أيضا يحدث أحيانا أن بعض المواد التي كتبت على الهامش تضاف إلى النص دون الإشارة إليها أنها خارج النص فتصبح جزءا أو عبارة نصية مقدسة.

كم تجدر الإشارة أن التغييرات في النص الأصلي عن قصد فقد مارسوه مع فقرات بأكملها، حيث كانوا يتصورون أنها مكتوبة خطأ في صورتها التي بين أيديهم. كما كانوا يحذفون بعض الكلمات أو الفقرات، أو يزيدون على النص الأصلي فيضيفون فقرات توضيحية.

و في هذا المقال سنحاول توضيح الظروف التاريخية التي من خلالها جمعت الروايات الشفهية المقدسة وحتى المخطوطات التي تم العثور عليها ابتداء من القرن 7 ق م والتي كونت في مجملها ما يعرف اليوم بالنص التوراتي ولم يتأتى هذا العمل نتائجه إلا بعدما عرضت نصوص التوراة التي أقرها مجمع نيقية Le concile De Nicée على عملية النقد النصي المقدس سواء النقد التاريخي أو الأدبي. وتعود أولى المبادرات في هذا المنحى إلى عالم العقيدة المقدسة وشارحها الفرنسي ريشارد سيمون Richard Simon.

I – إرهاصات النقد التوراتي

لقد اعتبرت الحاخامية في القرن التاسع ميلادي أن أسفار العهد القديم بما فيها التوراة وكامل الكتاب المقدس موحى ومن غير أخطاء وذلك لأن أقراره كنص شرعي ومقدس جاء على اثر انعقاد مجمع نيقية 325م، وجاء هذا الاعتقاد

لتبرير الأخطاء غير المعقولة والتي أصبحت وبشكل مرفوض . فما كان عليهم اتجاه هذه الأخطاء إلاّ حصرها

فقط في النمط الكتابي وعليه لجئوا إلى عملية تصحيح كبيرة مست جميع أجزاء العهد القديم من الناحية النسخية فقط وهذه العملية تعرف بالماسور[1].

لكن علم الآثار غير ه المسلمات التي طالما دافع عنها اليهود والكنيسة، لأن عمل الماسور لم يقض أبدا على الشكوك التي ما فتئت تزاد وأخذت مسارا أكثر خطورة حول جوهر النص ووحيه عن طريق الشك في كيفية انتقالها عبر الزمن من نصوص شفهية إلى غاية نصوص مكتوبة إلينا، والإشكال الذي طرح في هذا الشأن هو على ماذا استند هؤلاء النساخ لاسيما أن كل سفر من أسفار العهد القديم لم يكتب في وقته ولا نستطيع أن نقرّ أن هذه الأسفار تنسب إلى أصحابها لأن النصوص ذاتها تدل على هذا الاختلال في النسب.

و من هنا اتضح جليا بضرورة القيام بعملية تمحيصية أخرى لهذه النصوص، لكن هذه المرة بشكل نقدي عوض الاكتفاء بأخطاء النسخ . وهذا النقد يعنى بالأسس التي يقوم عليها كل العهد القديم وليس التوراة منفردة . وإن كان هذا النقد على زعم المعجم التوراتي

نقد قاسي وهدام[2]، كيف لا واكتشافات القرن العشرين من وثائق الجنزا والبحر الميت سنة 1946م جعلتنا وجها لوجه أمام أصول قديمة جدا على تلك التي اعتمد عليها الماسورتيون التي في مجملها نسخة نفتالي ونسخة بن أشير المعروفة بمخطوطة أنبياء القاهرة The Cairo Prophetes المكتوبة في طبرية حوالي 895م . وبهذا تعد أقدم نسخة للعهد القديم يمكن العودة إليه في عصر الماسورتيون[3].

و نضيف أن الماسورتيون في حدّ ذاتهم لم يعالجوا إلاّ الأسفار التي اعترف اليهود بقانونيتها في القرن الأول

ميلادي فقط (أي أن مصدرها الوحي ومكتوبة باللغة العبرية). وهذا يحول دون التحقق من تلك الأسفار التي أضافتها الكنيسة الرومانية ورأت أنها قانونية وأدخلتها ضمن أسفار العهد القديم الكنسي[4].

كما أن التوراة الحالية أقدم نسخة منها تعود في الأصل إلى سنة 1008م وتسمى بنسخة لنينغراد وتتباين إلى حد كبير مع النسخة السبعينية (الترجمة الإغريقية للعهد القديم التي جرت في مدينة الإسكندرية) التي من بين ما اعتمدت عليه التوراة السامرية، والتي تختلف جزئيا على التوراة العبرية[5].

و يذكر طاه باقر أن السبي البابلي، وبقاء اليهود في بابل قد طور ديانتهم كما أن أسفار التوراة قد دونت معظمها في هذه الفترة المظلمة ما بين 586و538 ق م من طرف الكاهن عزرا. لكن المرجح أن كتابتها قد أعيدت ونقحت خلال القرنين التاليين ومع انه يوجد في هذه الأسفار الأولى الخمسة[6] مادة قديمة إلاّ أنها ليست الأقدم تدوينا، والراجح أن أسفار الأنبياء أقدم منه[7].

و الشك في أسفار التوراة والعهد القديم كله ليس وليد العصر فهو قديم والشك كان حتى من طرف الطوائف المسيحية أنفسهم، فالكنيسة البروتستانتية حذفت من أسفار العهد القديم القانوني عندها أسفارا مثل سفر طوبيا، سفر باروخ، سفر يهوديت وسفري المكابين الأول والثاني وبعض آيات سفر أستير وبعض الآيات من سفر دانيال بينما اعترفت الكنيسة الكاثوليكية بهم ولقانونيتهم . فهل زاد الكاثوليك في كلام الله ما ليس منه .أم أن البروتستانت هم الذين حذفوا كلام الله ما لا يجوز حذفه؟[8].

ويقول مصطفى محمود في كتابه التوراة " لا يحتاج من يريد إثبات التحريف والتبديل في التوراة على أدلة من الخارج، فالتوراة ذاتها تعطيه المفتاح وتعطيه الأدلة على تحريفها بصريح آياتها"[9] فقد ورد في المزمور 56 من المزامير "ماذا يصنعه بي البشر، اليوم كله يحرفون كلامي "[10] ونجد في سفر إرميا " قال الرّب لي بالكذب يتنبأ الأنبياء باسمي، لم أرسلهم ولا أمرتهم ولا كلمتهم"[11] وجاء في نفس السفر أيضا " إن قد حرفتم كلام الله الحي رب الجنود إلهنا"[12].

و إزاء هذا الوضع جاء علم نقد التوراة وأحد فروع علم نقد النصوص بالحل الذي يفرض التعامل مع الكتاب المقدس والعهد القديم والتوراة كما نتعامل مع جميع المخلفات الأدبية للحضارات القديمة، أن ندرس بدقة متناهية مجمل القراءات المختلفة من النص الماسوري ومختلف نصوص الترجمات السبعينية واللاتينية الفولجات والسريانية والترجوم الآرامي وتحليل محتوى نصوص البحر الميت المنشورة إلى غاية الآن[13].

لقد فتح لنا علم نقد النص وخاصة علم نقد التوراة آفاقا واسعة من حيث البحث والدراسة. فهذا العلم يعنى بدراسة وفحص الكتاب المقدس بعهديه خارجيا وداخليا، بحيث يهدف للوصول أقرب نص يطابق النص الأصلي لأنه على زعم كلام الأستاذ دونيس نينهام Ninham" أن كلام البشر قد اختلط بالكلام الموحى به ولا ندري أيهما كلام الله وأيهما كلام الناس"[14].

و يبحث موضوع النقد هنا في مناقشة المؤلف أو العقيدة، والتاريخ النقدي هو التاريخ الذي يحاول خلاه الكاتب تأسيس الأحداث وفرزها من كل ما أصابها من تحريف، وما لحق بها من عناصر خارجية.

أما النقد الأدبي فيتمثل في الجهد المبذول من أجل التمييز بين نصوص مؤلفين، إما للحكم عليها أو تقويمها، وإما شرح كيفية تكونها وإما لبيان معناها وحمولتها[15].

و الحاجة الملحة في موضوع نقد التوراة هي العثور على مواطن الخطأ بالدرجة الأولى التي تنسب كلاما إلى الله تناقل عبر أجيال شفهيا ثم كتابيا وكلما تضاعف النقل وتضاعفت معه الأخطاء مما انجر عليه عدم التطابق الأخلاقي بين ما هو فعل وما هو كلام منسوب إلى الخالق.

و من هنا بات مألوفا أن يخضع الكتاب المقدس برمته للمناهج النقدية نفسها التي تخضع لها النصوص الأدبية الإغريقية، اللاتينية، الرومانية وغيرها من النصوص الأدبية القديمة . فالعهد القديم نفسه نص أدبي لاشتماله على ملامح وأساليب أدبية عديدة منها الإغريقي لأهمية الترجمة الإغريقية السبعينية، لاتيني بسبب الترجمة اللاتينية الفولجات وهذا من أجل معرفة أحداث ترجع إلى عشرات القرون قبل الميلاد . ومن المألوف أيضا أن يلجأ اللاهوتي والمفسر إلى العلوم والمناهج

نفسها المطبقة على النصوص الأخرى ومنها المنهجين الفيلولوجي والتاريخي اللذين تميزت بهم دراسة الكتاب المقدس أو النقد التوراتي منذ القرن 17 م[16].

و إذا اعتنى النقد باللاهوت تصبح مهمته صعبة ففهم النصوص الدينية أصبح من المسلم أنه لن يخضع لكل خبر أو شهادة من الماضي ما لم يخضع للنقد والتمحيص . فكتاب مثل التوراة وكل العهد القديم هو في آن واحد نسق تاريخي ونص أدبي في قالب ديني. ولا بد لكل دارس له من معارف تاريخية تمكنه من التأكد من تواريخ الأحداث الواردة فيه وصحتها ومعارف فيلولوجية تمكنه من استيعاب النص وفهمه في سياقه[17] ولهذا فالتاريخ يعتبر علم ضروري للاهوت .

و لهذا فإن الاعتماد على علم النقد التوراتي يساعدنا على تحديد طرق وصول النصوص إلينا ويشمل نقد النص والنقد الأدبي والنقد التاريخي .

و قد ذهب بعض الحاخامات في العصور الوسطى إلى تطوير مبادئ تفسير النصوص وكان من بينهم المفسر راشيRachi صاحب أهم التفاسير الذي أرفقه في شرحه للتوراة[18]. كما يرجع الفضل لواحد من رواد إصلاح نصوص العهد القديم وإخضاع التوراة والعهد القديم للنقد هو الحاخام الشهير بن عزرا (1092-1167)م في القرون الوسطى، فقد كانت له وجهت نظر اقترح من خلالها إعادة النظر في المفارقات التاريخية التي تؤدي إلى زرع الشك وتأكيده حول نسب التوراة إلى النبي موسى أو على الأقل مراجعة الفقرات التي تتناقض والوقائع التاريخية .

وافتراض أيضا أن سفر إشعيا ابتداء من الإصحاح الأربعين يجب أن ينسب إلى نبي وكاتب آخر[19].

وجاءت المرحلة الكبرى والذهبية لنقد النصوص مع الفيلسوف الهولندي باروخ سبينوزا، هذا الأخير رأى ضرورة دراسة العهد القديم كنص ضمن نصوص دينية أخرى وبالعودة إلى تقصي مضمون النص عن طريق منهج المقارنة عوض ما عودتنا به التقاليد اليهودية وطور رأي بن عزرا في عدم انتساب التوراة المعتمدة لدى المعبد والكنيسة الروماني إلى النبي موسى[20].

II- بداية نقد النصوص المقدس:

إن علم نقد النصوص La Critique Textuelle ظهر أول مرة في التاريخ في فرنسا كعلم له قواعده، ، فظهرت نخبة من الفلاسفة الفرنسيين ابتداء من القرن السابع عشر الميلادي أخضعوا الكتاب المقدس للنقد العلمي، بعد أن كانت قد استهزأت به المدرسة الفولتيرية . ومن الرواد الفرنسيين الأوائل في هذا المجل الفيلسوف واللاهوتي ريشارد سيمون Richard Simon حيث استطاع أن يؤسس عناصر تفسير وشرح جديدة للكتاب المقدس انطلاقا من نظرته اللاهوتية وظهرت نتائج اجتهاده في كتابه التاريخ النقدي للعهد القديم Histoire Critique Du vieux Testament[21] وفيه يؤكد على الصعوبات والمغالطات الخاصة بتسلسل الأحداث والتكرار وفوضى الروايات والفوارق في الأسلوب المنتهج لكتابة الأسفار الخمسة الأولى[22].

و بهذا بدأ يتضح جليا أن نصوص التوراة أو ما نسب إلى النبي موسى ليس نصا واحد، وأيضا هي عبارة عن اجتهادات لمئات السنيين ومزيج بين نصوص تنتمي إلى ما قبل الأسر البابلي ونصوص تنتمي إلى

فترة ما بعد السبي. كتبت في لحمة ظهرت مصطنعة وعليه يصعب جدا التمييز فيها ما يعود للنبي موسى من أفعال وأقول[23] وما أضيف إلى ذلك خلال الفترات اللاحقة ومدى التأثر بالإرث الديني للشعوب الأخرى خاصة التراث الديني لبلاد ما بين النهرين الذي واضحا في سفر التكوين . وعليه فإن كل ما كان يعتقد أنه موسويا من الوصايا العشر وتوراة الأخماس أصبح غير معقول أنسابه للنبي موسى[24].

إن الذين جاؤا بعد ريشارد سيمون ركزوا كل مجهودهم حول نصوص التوراة (البنتاتوك أي الأسفار الخمسة الأولى) من الناحية التركيبية وبنوا نظرياتهم اعتمادا على تباين اسم الله[25]. ومن الأوائل الذي ذهبوا في هذا الاتجاه الطبيب الفرنسي أستروك طبيب الملك لويس الخامس عشر سنة 1753م في دراسة بعنوان " قرائن عن المذكرات الأصلية التي يبدوا أن موسى قد استخدمها لتحرير سفر التكوين[26].

Conjoncture sur les mémoires originaux dont-il Moïse s'est servi pour composer le livre de la genèse .

يؤكد فيها على تعدد المصادر لكتابة هذا السفر . وذلك من خلال ملاحظة روايتين جنبا إلى جنب تحتوي كل واحدة منها خاصية مختلفة في اسم الله . إذ تسميه الرواية الأولى يهوه وتسميه الرواية الثانية إلوهيم[27] وبعد دراسة طويلة نراه يقرر أن الرواية الإلوهيمية هي الشائعة بكثرة في سفر التكوين وأن الرواية اليهوية مكملة لها فقط[28]. لم يكن للفرنسيين وحدهم الفضل في التنبيه إلى إخضاع العهد القديم والكتاب المقدس إلى الفحص عن طريق نقد النصوص،

فقد شاطرهم الرأي وسعى مسعاهم الكثير من الفلاسفة وعلماء اللاهوت الألمان وبالخاصة الألمان البروتستانت وسيطروا على هذا المجال مما جعل رينان يذكر أنه"لم يبق من العلوم المتخصصة في تاريخ الشعب الإسرائيلي والكتاب المقدس ما يمكن أن يضاف"[29]. بفضل تبنيهم للفكر الحرّ والمتجدد والدّقة مما أبطأ في ظهور النتائج، فقد كان العلماء الألمان يريدون تمحيص كل شيء وإعطاء تفسير لكل شيء متبنين في ذلك أسلوب أرنست رينان الذي يرى أن علم نقد النصوص في جوهره فلسفي وفي ظاهره ديني أي يجب أن يتوفر شرطين لذلك هما الشّك من أجل فهم ظاهرة الأديان، والإيمان بالدين .

و من أبرز الفلاسفة الألمان الذي ساروا على هذا المنهج نجد إيكهورن Eichhorn وهو أيضا توصل إلى نفس نتيجة أستروك كما أضافت جهوده اكتشاف الروايتين اليهوية والإيلوهيمية[30] في كامل أسفار التوراة (البنتاتوك) الباقية[31]. ثم إن هذه الروايات لا تختلف فقط في اسم الله بل هناك اختلافات في المفردات والأسلوب وحتى طبيعة العقيدة ويلاحظ أن الوثائق الإيلوهيمية هي أساس الأسفار الأربعة وأيضا سفر يشوع الذي يرى فيه العالم إيفالد Ewald كتاب الأصول Le Livre des Origines المتضمن في سفر التكوين تحت عنوان " هذا كتاب مواليد آدم"[32].

1- الاختلافات بين الروايتين

إن الرواية اليهوية تعبر على الحالة التشريعية، لأن الأسفار التشريعية الخمسة هي أسفار يهوية ولأن الفكرة اليهوية هي الأصل في التشريع اليهودي[33]. وتتضمن سردها خلق الكون وبداية ظهور الجنس البشري[34] ثم تسترسل في ذكر ما كان من شأن قاييين(قابيل) وأخيه

هابيل وأنهما أول أبناء آدم . وتوصل سرد الأحداث في إطار زمنيا متسلسل متطرقة للطوفان وتعتبر نوح من نسل قابيل[35]. وتتحدث بأسلوب فخم عن العلاقة الوثيقة بين الله والآباء والوعود الممتدة عبر نسل إبراهيم . ومن الناحية الطقسية فهي تفرض معرفة يهوه والتقرب له بالقرابين وإقامة المذابح ومراعاة وصاياه[36] .

و هنا يظهر أن هذه الرواية استخدمت في نص التوراة وتؤرخ لعهد البطارقة أو الآباء ويشير سفر التكوين جيدا إلى ذلك حيث يرجع عبادة يهوه إلى الجيل البشري الثاني أبناء يعقوب " حينئذ ابتدئ أن يدعى باسم الرّبّ[37]. ولم تتغلب على الرواية الإيلوهيمية إذ أخذ التشريع الكهنوتي إعادة بعثها من جديد، حيث نجد أن يهوه إله موسى ما هو إلاّ إلوهيم إله الآباء الذي بقي غلى غاية فترة موسى غير معروف . أما من الناحية الدينية فليس تقريبا بينهما مهم جد. فاليهودية باستعمالها اسما إلهيا وواحدا إنما توحي من وراءه إظهار عدم تميز بين الهوية الدينية للآباء وهوية الدين للشعب الإسرائيلي بعد ذلك. وتشيد الرواية الإلوهمية بنفس شيء . ويسودها الاعتقاد بأم الأجيال التي سبقت موسى كانت تعبد نفس الإله الذي عبده الإسرائيليون في عهد النبي موسى بحيث نجد هذا واضحا في سفر الخروج " وقال لله أيضا لموسى هكذا تقول لبني إسرائيل يهواه إله آباءكم غله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب أرسلني إليكم . هذا اسمي إلى الأبد وهذا ذكري إلى دور فدور"[38].

و تختلف الرواية الإلوهمية واليهوية من حيث انطلاق الأولى من ذكر آدم خلق على شكل ذكر وأنثى وتناسل من نفسه إبنا هو شيت[39]

ومباشرة تمر إلى إبراهيم وتستمر بشكل مقتضب حول الآباء إبراهيم وإسحاق ولا تسترسل إلاّ عندما تتطرق إلى يعقوب وأبناءه وخاصة يوسف . وتصف الدين اليهودي وطقوسه بالبساطة وتجرى في العراء فلا تتطلب مذابح أو قرابين ولم يرد فيها إلا مرة عن سكيبة زيت قدمها يعقوب[40]. ومرتان عن قربان قدمه إسحاق في بئر السبع[41].

و تتميز الرواية الإلوهمية عن الرواية اليهوية بالانفتاح، حيث هي الرواية وحيدة التي ذكرت دبورة على أنها نبية[42]، وذكر الأسماء الأجنبية مثل بوتيفار(عزيز مصر في القرآن) .

أما عن أصل هاتان الروايات، ومن الخلاصة التي توصل إليها العديد من اللاهوتيين والمؤرخين هي أن كل الشعوب عندما دخلت عصورها التاريخية كانت تحمل معها كنزا قصصيا وغنائيا وذكريات مرتبطة بأسماء أشخاص وأماكن وكل جيل يسردها ويرددها على طريقته[43] فتتحول بعض مكونتها بالطبيعة إلى نوع من الأساطير.

وفي نفس هذا الاتجاه ذهب الأستاذ إدموند جاكوب Edmonde Jacob صاحب كتاب العهد القديم Ancien Testament الذي ظهر في فرنسا فقد استنتج أن كل شعب يغني في مراحل تطوره البدائية، وفي إسرائيل كما حدث في غيرها من الأمم قد سبق الشعر النثر، وقد غنت إسرائيل كثيرا مدفوعة بالظروف التاريخية التي قادتها إلى ذروة الحماس كما أسقطتها في متاهات اليأس ولأنها ساهمت بكيانها في كل ما حدث لها أصبح لكل شيء معنى في اعتقادها[44].

و أوضح إدموند جاكوب أن هذه المناسبات الإحتفائية التي يحتوي العهد القديم على الأغاني المصاحبة لها، ومنها أغاني الطعام، وأناشيد العمل ومنها نشيد البئر، وأناشيد الزواج وأناشيد الحرب مثل

ترنيمة دبورة .كما يلاحظ أن حفظ هذه الأقوال كان يتم عن طريق التلقين إما عن طريق الأسرة أو عن طريق أماكن العبادة على شكل روايات. وهذا ما سمح له استنتاج أن " الوظيفة الأسطورية في الرواية لم تعبأ بما يتعلق بموضوعات وعصور كان تاريخها معروفا بشكل سيء" ويحتمل أن ما يرويه العهد القديم عن النبي موسى والأنبياء الآخرين لا يتفق إلاّ بشكل تقريبي مع تاريخ الأحداث، لكن الرواة كانوا يعرفون في مرحلة النقل الشفهي التنميق وإضافة الأناقة والخيال حتى يربطون بين أحداث شديدة التنوع . وقد نجحوا في تقديم هذه الأحداث في شكل حكاية حول أصل العالم والإنسان [45].

إن نقد النصوص مع حلول القرن التاسع عشر ميلادي شهد خطوة جبارة، فقد كرس الباحثون جهودهم للبحث عن مصادر أخرى غير الروايتين السابقتين . وكان رواد النقد في هذه الفترة الألمانيان إدواد روسEdwards Reuss[46] وتلميذه غراف Graf . ونظرية غراف التي أسسها قبله أستاذه روس ترتكز على وجود أربع وثائق أو روايات للتوراة، إضافة إلى الوثيقتين السابقتين وجد غراف وثيقتين جديدتين هما المصدر التشريعي " سفر التثنية التي عثر عليه الكاهن حلقيا في عهد الملك يوشيا ملك يهوذا في القرن السابع قبل الميلاد" والوثيقة الأخرى هي النص الكهنوتي الذي يرجع للكاهن عزرا والذي يكون قد قرأه على الشعب اليهودي بعد العودة من الأسر [47].

هذه النظرية هي التي درسها وطورها بعد ذلك الفيلسوف الألماني جوليوس ولهوسن وعرفت بنظرية جوليوس ولهوسن Julius Welhausen بسبب دراسته العميقة لها وخروجه بتصور حول أصل

نصوص التوراة خاصة وهذه النظرية تعتمد على البناء التاريخي التطوري[48].

2 - نظرية جوليوس ولهوسن :

إن هذه النظرية تتلخص كما يلي :

إن الإسرائيليين الأوائل لم تكن لهم شريعة مكتوبة وإنما صيغ وضوابط تقليدية، منها ما هو قديم جدا تناقل شفويا . وكانت هذه الضوابط التقليدية نظرا لسلطتها المطلقة تنظم الحياة المدنية وتحولت إلى سلطة قهرية كثير من الأديان . عن طريقها يتدخل الكاهن ليعين فيما يراه ملائم التطبيق وهذه هي التوراة التقليدية حسب ولهوسن وما هي إلا الإشتراع أو سفر التثنية الذي وجد في عصر الملك يوشيا وقد رمز له ولهوسن بحرفD وكانت تمثل الكتاب الأوحد في عصرها. ثم كتب هذا السفر عن طريق الكهنة لهدف محدد[49] هو أن يكون له قيمة شعبية ككتاب دين. ومن جهة أخرى ظهرت هذه الشريعة كصورة إصلاحية جديدة وليس ترميم لما هو قديم.

إذا فالكتاب الأول لم يكن في أصله إلاّ كتاب تشريع، تضخم عبر الأجيال إلى أن صار توراة . أول إضافة له تمثلت في وقائع تاريخية، فكتاب تشريع كهذا قدر له أن يتحول إلى مشروع ميثاق بين شعب والله ن كل الأسباب التاريخية تعلل به عوض أن يبقى كتاب صيغ تشريعية.

إن هذا الجزء التاريخي تكون بعد ذلك من الروايتين اليهوية والإيلوهيمية، فالرواية اليهوية خرجت من مملكة يهوذا حوالي التاسع قبل الميلاد، أما الرواية الإيلوهيمية فقد خرجت من مملكة إسرائيل قرن بعد اليهوية . وكلتاهما تقدمان خصائص الرواية الشعبية، تروي أصل الشعب الإسرائيلي بطريقة بسيطة وساذجة وأسطورية . وهاتان

الروايتان كتبتا بعد تناقلهما شفويا إلى غاية تاريخ 720 ق م على وجه الاحتمال . وبسبب التشابه الكبير بينهما جمعتا في وثيقة واحدة عرفت بالرواية النبوية حيث تدين بهذه التسمية إلى منشئها الذي كان عبر العصر الذهبي لحركة النبوة. وهذا الالتحام للروايتين رمز له ولهوسن بـ R^{JE} . وبعد صقل هذه الوثيقة الجديدة أضيفت إلى كتاب الشريعة أثناء الأسر وأصبحت التركيبة بهذه الصيغة $D+R^{JE}$.

و الإضافة الأخيرة التي ألحقها ولهوسن إلى هذه المجموعة هي التشريع الكهنوتي الذي ألف في أورشليم على يد الكاهن عزرا، سواء في نفس العصر الذي قرأه على الشعب أو قبله بقليل أثناء قبيل العودة من الأسر البابلي ورمز ولهوسن لهذا التشريع بحرف **P** وقد التحم هذا الأخير بالمجموعة السابقة وفي الأخير أصبحت التركيبة التاريخية للتوراة حسب ولهوسن بهذا الشكل $P+R^{JE}+D$ وهو الشكل النهائي للتوراة حسب هذه النظرية[50].

و قد بقيت نظرية ولهوسن مسيطرة على مبادئ النقد النصي مدّة ثلاثين سنة دون معارضة تذكر .تشريع لكن بعد ذلك بدا مفعولها يتلاشى نظرا لإهمال ولهوسن إشكاليتين أساسيتين حول مصدر هذه الروايات التي تناقلت شفويا ومصدر التشريع الكهنوتي أيضا[51].ثم القيمة التاريخية التي يمكن تقديرها لها . هذه عقدة إشكال ولهوسن الذي عجزت نظريته عن مواجهته لاسيما إذا عرفنا أن أشد خصومها هم علماء الآثار في الدرجة الأولى الذين قابلوا روايات ولهوسن بوثائق أكثر دقة عن التشريع والتاريخ وهي المصادر التشريعية لبلاد ما بين النهرين كقانون حمورابي ووثائق أقدم من قانون حمورابي مثل وثائق

قانون أورنامو وقانون لبت عشتار أما عن الحدث التاريخي لا يمكن أن نفصل ما هو موجود في وثيقة الكاهن عزرا عن الأصل أيضا في بلاد ما بين النهرين لاسيما وأن عزرا عاش هناك وتعرف على الموروث الديني البابلي وقصة الطوفان موجودة بالتفصيل في اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش الذي اكتشفه جورج سميث سنة1871م، أما الخليقة فلها مصدر أيضا في بلا ما بين النهرين أقدم مما كتبه عزرا وهي ألواح الخليقة السبع أو ما يعرف بإنوما إليش "عندما في الأعلى" تقريبا كما يبدأ به سفر التكوين .كما أن هناك وثائق رسائل تل العمارنة التي تؤرخ للأحداث السياسية . ومن هنا نجد أن الدراسات الحديثة عدلت من نظرية ولهوسن في عدة جوانب، فبفضل دراسات وأبحاث المدرسة السويدية رأت أن وسائل النقد الأدبي لا تكفي وحدها دون سند أخر وأنه من الضروري أن ندخل في الاعتبار الآثار التي يتركها التناقل الشفوي للقصص زمنا طويلا قبل تدوينه وننظر للمصنف الناشئ على أنه مكون من طبقات مختلفة ومجموع من مصادر متباينة[52]. وهو نفس الاتجاه الذي ذهب إليه المؤرخ لودز Adolphe Lods حيث ميز في الوثيقة اليهوية ثلاثة مصادر. وفي الوثيقة الإلوهيمية أربعة مصادر . أما سفر التثنية فقد لاحظ أنه متكون من ستة مصادر. وأخيرا المصدر الكهنوتي فهو مؤلف من تسعة مصادر حسبه [53].

أما إيرمان غينكل Hermen Gunkel فقد اتخذ مسلكا آخر في علم نقد النصوص بالعودة إلى أصول تعود إلى فترة ما قبل التاريخ. وبذل جهدا كبيرا في إعادة تركيب سفر التكوين من نصوص يعتقد أنها تنتمي إلى المرحلة الشفوية السابقة لظهور الكتابة، معتمدا في ذلك على تشخيص الأنماط الأدبية لكامل العهد القديم باستخراج الصيغ

والدوافع والصفات المميزة لكل نمط أدبي . والذي هو بدوره ثمرة وضع اجتماعي معاش أو وضع ثقافي. وفي هذا الإطار فإن الصيغة التعبيرية تتشكل ثم تصبح متداولة دوريا. هذه الطريقة الجديدة في علم نقد النصوص تعرف باسم نقد الأنماط La Critique Des Formes وبفضلها فتحت أفاق جديدة لدراسة الأوضاع الاجتماعية والثقافية للعصور الإسرائيلية الأولى[54].

الخاتمة

و خلاصة نستطيع القول، إن نقد نص التوراة أسس للنظر في إشكالية مصداقية التوراة حول ما يعتبر تاريخا مقدسا. ومن خلاله يتضح أن النص المقدس ما هو إلا نمط من أنماط الروايات التاريخية والتي تنشأ عن إرادة الله، لا تخضع القوانين الفزيائية والقواعد المنطقية من أجل فرض وتثبيت مقولة وعظية أخلاقية، مع العلم أن تلك الروايات التاريخية الدينية قد يكون لها نواة تاريخية بسيطة تم تضخيمها وتسييسها لخدمة مقولة وعظية .

على هذا الأساس رأى الناقدون أن نصوص التوراة وكامل العهد القديم لا يمكن أن ترجع في الأصل لأصحابها، فهي في الأصل روايات تناقلت عبر الزمن طويلا شفهيا ووثيقة البريتة التلمودية تثبت ذلك إذ نراها في كثير من المواقع تنسب السفر لنبي معين إلى كتبة مختلفين بل في بعض الأحيان إلى مدارس دينية، كما رأى النقاد أنه ليس هناك ما يدعوا إلى أن نصدق نصوصا متعددة الأصول التي هي أيضا تفتقد للأصول . فالتحريف لا يتعلق بالأسفار الخمسة الأولى التي ركز عليها الكثيرون وإنما طال كل العهد القديم. فالتيار المتعصب من رجال المعبد والكنيسة وقفوا طوال قرون ماضية لفرض وتثبيت فكرة معينة، وهي أن تلك النصوص منزلة مستعينين بالتعسف والقمع والتعتيم وحتى المعاقبة بقانون الحرمان، لنسج صورة للعقيدة اليهودية والمسيحية وفقا لمبدأ الخلاص.

الهوامش

(1) ومع بداية القرن الخامس م إلى غاية نهاية القرن التاسع م وبداية القرن العاشر، أضحت نصوص العهد القديم موضع تصحيح وتنقيح من طرف مجموعة هائلة من الحاخامات عرفت عبر التاريخ بالهيئة الماسورية وعملهم الضخم عرف بالماسور، قام به حاخامات أورشليم والمدرسة الحاخامية في طبرية المعروفون تاريخيا بالهيئة الماسورية .ففيه تم تحديدا نهائيا لنمط الكتابة العبرية وتزويدها بحروف متحركة، كما تم اعتماد تقسيم العهد القديم إلى إصحاحات وقسمت الإصحاحات إلى آيات . وحدد هدف الماسوسريتيين وهو الحفاظ على كمال النص المقدس ومن هنا أطلق على الماسور اسم "السياج الحافظ للشريعة"(2) فارتكز عملهم على ثلاث نقاط أساسية هي : تحديد كيفية كتابة النص عن طريق إعطاءه نماذج من الحروف والنقاط تكتب بطريقة معينة للدلالة على مفهوم ما داخل النص، منها :نقاط الطوارئ Les Points Extraordinaires .و إعطاء النص نظاما صوتيا عن طريق إدخال ما يعادل الحروف المتحركة Les Voyelles في اللغات اللاتينية .و مطابقة النص الماسوريتي مع النصوص العبرية القديمة . وننوه هنا أن التوراة السامرية لم تخضع للماسور، وإنما بقيت على حالها . وتحتوي على الكثير من الروايات التي تختلف عن التوراة العبرية .

(2) محمد السعدي، دراسة في الأناجيل الأربعة، دار الثقافة، الدوحة، 1985، ص111 .

(3) محمد السعدي، المرجع السابق ، ص111 .

(4)نفسه، ص51 .

(5) نفسه، ص52.

(6) المقصود هنا السفر الذي كتب في فارس وقرأه عزرا بعد السبي

(7) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات بيت الوراق للطباعة والنشر ، دون ذكر التاريخ، ص 33.

(8)محمود مصطفى، التوراة ، مكتبة أو العيس، القاهرة، دون ذكر التاريخ ، ص69 .

(9) نفسه، ص97.

(10) سفر المزامير56 .

(11)سفر إرميا 14.

(12) سفر إرميا 23.

(13) أحمد عبد الوهاب، اختلافات في تراجم الكتاب المقدس وتطورات هامة في المسيحية، مكتبة وهبة، القاهرة 1987، ط1، ص 22.

(14) محمد عنان، إخوة الزيف "نظرة بحثية لإنجيل مرقص وخاتمته دار التحقيقات العلمية، ص 12 .

(15) يوسف الكلام، المرجع السابق، ص26 .

(16) نفسه، ص32 .

(17) نفسه، ص25 .

(18) J. Gottfarstein, Himach et Rachi, Le Monde juif, Centre documentaire Contemporaine Juif, N°13 ? 1958, pp21-23.

(19) Julien. Weill , le JudAaïsme ,Félix Alcan,Paris .1931 ? p74.

(20) Geoffrey.Wigoder, Dictionnaire Encyclopédique De La Bible, Les EditIons du Cerf ,Paris , 1993,p160.

(21) Ernest. Renan, Etude d'Histoire Religieuse , Michel Levy Frères,Paris ,1861, p77.

(22) Maurice Bucaille , La Bible , Le Cocan et La Science, Editions Seghers ,1976,p24.

(23) Chantepie De La Saussaye , Manuel d'Histoire des Religion, ArnaudColin , Paris,1904 ,p88.

(24) Ibid, p89.

(25) Geoffrey Wigoder, Op cit,p161.

(26) James Darmesteter, Les Prophètes d'Israël , Reider , Paris , 1931,p37.

(27) Maurice Bucaille, Op cit, p25.

(28) نجيب مخائيل إبراهيم، مصر والشرق الأدنى القديم، ج2، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1964 ، ص191.

(29) Ernest.Renan, Op cit, p77.

(30) عند قراءتنا لأسفار التوراة تظهر لنا الرواية اليهوية إسم الله مذكور تحت لفظ الرّب . أما الرواية الإلوهمية تظهره لنا تحت لفظ الله .

(31)) Maurice .Bucaille , Op cit, p42.

(32) نجيب مخاائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص191.

(33) نفسه، ص 194 .

(34) Chantepie De La Saussaye, Arnaud Colin, Paris, 190, p135 .

(35) سفر التكوين 4: 17-24 .

(36) نجيب مخاائيل إبراهيم، المرجع السابق، ص194.

(37) سفر التكوين 4: 26 .

(38) سفر الخروج 3 :15 .

(39) سفر التكوين 5: 3 .

(40)) سفر التكوين 35: 14

(41) سفر التكوين 46: 1.

(42) سفر التكوين 35: 8.

(43) Chantepie De La Saussaye, Op cit, p137.

(44) Maurice .Bucaille , Op cit, p17 .

(45) Ibid , p18.

(46) ظهرت دراسة إدوارد روس في كتابه : La Bible , Traduction Nouvelle avec Introduction et commentaire

في ثلاثة عشر جزءا نشر بين سنتي 1874 و1878م

(47) سبتينو موسكاتي، الحضارات السامية القديمة، ترجمة سيد يعقوب بكر، دار النشر، 1957 ، ص 157 .

(48) Geoffrey.Wigoder, Op cit, p162.

(49) G. Ricciotti, Histoire d'Israël , trad,Paul Avvray, Picard et Cie ,Paaris, 1947, T2 ,p117.

(50) Ibid , p119.

(51) Ibid , p122.

(52) سبتينو موسكاتي، المرجع السبق، ص 158.

(53) Maurice .Bucaille, Op cit, p25 .

(54) Geoffrey.Wigoder,Op cit, p162.